

الفلسفة في العصور الوسطى : فإذا ما انتقلنا الآن إلى فلاسفة العصور الوسطى (من مسيحيين ومسلمين على السواء) ، ألفينا أنهم قد صرفوا جهودهم إلى التوفيق بين الفلسفة والعقيدة ، أو بين العقل والنقل ، حتى لقد زعم بعض مؤرخي الفلسفة أن الصبغة العامة التي اتّسم بها التفكير الوسيط في الشرق والغرب معا لم تكن سوى مجرد صبغة توفيقية أو تأليفية أو تلفيقية .

الفلسفة المسيحية : ولكن من المؤكد مع ذلك أن ظهور المسيحية قد ساعد على توجيه الفكر الإنساني نحو كثير من المشكلات الميتافيزيقية التي لم يخض فيها فلاسفة اليونان ، أو التي لم يتطرق إليها قدماء المفكرين . ولعل في مقدمة الأفكار الجديدة التي جاءت بها المسيحية فكرة الوجود الكامل ، وفكرة العناية الإلهية ، وفكرة التفاؤل المسيحي ، والنزعة التشبيهية ، والقول بمذهب شخصي ، إلى آخر تلك الأفكار المسيحية التي تميزت عن سائر الأفكار المماثلة عند اليونان والرومان ، وهذا يعني إمكان قيام فلسفة مسيحية ، بمعنى الكلمة . حقا لقد أخذ المدرسيون الكثير عن مذاهب اليونان والرومان وآباء الكنيسة الأول ، ولكن سائر العناصر التي أخذوها عن تلك المذاهب قد تحولت على أيديهم واكتسبت طابعا جديدا ، حتى ليكاد يعسر علينا أحيانا أن نقف على أصولها . ولم يسر فلاسفة العصور الوسطى في استعانتهم بالفلسفة القديمة على مبدأ عبادة القديم لقدمه ، وإنما كان رائدهم في ذلك هو البحث عن الحقيقة دون التعبد للماضي لعبادة عمياء . فهم إذن كانوا يلتمسون الحق أنى وجدوه ، لا يحفزهم إلى ذلك سوى باعث واحد هو السعي إلى الكشف عن الحقيقة . ولكنهم قد وجدوا أنفسهم بإزاء حقيقة فلسفية مصدرها العلم ، وحقيقة دينية مصدرها الوحي ، فكان لا بد لهم من أن يحاولوا التوفيق بين هاتين الحقيقتين ، ما دامت الحقيقة لا تتعارض مع الحقيقة ! وهكذا حاول قوم منهم أن يبينوا للناس ما في مجموع الحقائق المنزلة من تعبير عن المعقول ، وتكملة للعقل البشري ، حتى يهيئوا للناس عن هذا الطريق سبيلا يعينهم على فهم ما في الصيغ العامة للدين من تعبير عن قوانين الوجود والفكر معا ، وتفسير الوجود البشري بأكمله ، أعني بما فيه من عقل وقلب معا . ولكنهم لم يستقروا على رأي واحد بخصوص العلاقة بين العقل والنقل ، فقال قوم منهم بأن الإيمان شرط ضروري للعقل ، بينما قال البعض الآخر إن العقل يمهد للإيمان ويقتاد إليه ، وإن اتحدت كلمتهم جميعا على القول بأن العقل والنقل مصدران هامان من مصادر المعرفة .. ثم جاء بعض الفلاسفة المدرسيين المتأخرين فزعموا أن كل ما يعدو دائرة التجربة ، إن هو إلا سر هيات للعقل أن يحيط به ؛ وبالتالي فقد ذهبوا إلى أن كل ما يفوق الطبيعة هو بالضرورة موضوع للإيمان وحده . وأما الصوفيون منهم فقد انتهى بهم الأمر إلى القول بأن كل البراهين الفلسفية والأدلة العقلية لا تساوى خفقة واحدة من خفقات النفس التقية التي تهفو إلى الله وتتجذب نحوه ! وعلى

كل حال ، فقد سار معظم الفلاسفة المدرسيين على نهج أرسطو ، فأدخلوا في نطاق الفلسفة الطبيعية كلا من علم الطبيعة وعلم الحياة ، وجعلوا من الميتافيزيقا (أو ما وراء الطبيعة) أشرف العلوم ، كما يظهر من تسمية القديس توما الأكويني للميتافيزيقا باسم « عميدة العلوم » .

بيد أن التفكير المدرسي لم يلبث أن استحال إلى الأعباء لفظية عقيمة ، وتحليلات منطقية جوفاء ، إذ قنع المدرسيون في نهاية العصور الوسطى ببعض الحلول المنطقية الصورية ، والحيل اللفظية الآلية ، فكان ريمون لول Raymond Lulle (مثلا) يستعين بجهاز منطقي ، أطلق عليه اسم الفن الكبير ، : Ars Magna من أجل إنتاج كل ما يريد أن يقوله من فلسفة ، وكل ما يود أن يثبتته من أدلة حول وجود الله ، وخلود النفس ، أو الرد على أصحاب الفرق الأخرى ، بإدارة بضعة ألفاظ إدارة آلية صرفة ! ولا شك أن هذا المنهج الآلي في التفكير هو الذي حدا بديكارت من بعد إلى اتهام المدرسيين بأنهم كانوا يعلمون الناس كيف يتكلمون عن كل شيء ، دون أن يعرفوا أي شيء على الإطلاق ! وهكذا دب الانحلال في أوصال الفلسفة المدرسية ؛ ثم استجدت عوامل أخرى هامة كحركة الإصلاح الديني ، وظهور بعض النزعات الشكية ، وقيام بعض الحركات العلمية ، فساعدت على هدم البقية الباقية من التراث الأرسططالي الذي ظل سائدا طوال العصور الوسطى .